زياد صالح الزعبي

الخشب والسرير

من الفيزياء الطبيعية إلى النقد الأدبي

دراسة بينية مقارنة



www.palms-news.com

نخيل نيوز/خاص

يتناول الكاتب والناقد الأردني د.زياد الزعبي في كتابه "الخشب والسرير" مصدراً فلسفياً ظل غائباً عن أغلب دراسات النقد العربي القديم، هو كتاب "الفيزياء" لأرسطو، والمعروف عند العرب باسم "السماع الطبيعي"، فيبحث في أثره في ثلاثة من أعمدة النظرية النقدية العربية: الجاحظ، وقدامة بن جعفر، وعبد القاهر الجرجاني.

ويوضح الناقد والمترجم المصري د.حسن البنا عز الدين في تقديمه للكتاب الصادر عن "الآن ناشرون وموزعون" بالأردن (2027)، أن الكتاب ينطبق عليه قول "دو سوسير" بأن اكتشاف الحقيقة أيسر من وضعها في مكانها الملائم، فالزعبي "لم يكتفِ بالتنبيه إلى ثنائية المادة والصورة، بل وضعها في موضعها الصحيح؛ أصلها في "فيزياء" أرسطو، وتجلّيها الأوضح عند الجرجاني مروراً بالجاحظ وقدامة".

ويشير البنا إلى أنه قرأ الكتاب الذي يحمل عنواناً فرعياً هو "من الفيزياء الطبيعية إلى النقد الأدبي"، أكثر من مرة، وعاد إلى معظم مراجعه، فوجد أن المؤلف سدّ "الثغرات التقليدية" التي يملؤها المقدِّم عادة، بإحكامه خلاصة الموضوع في مقدمته وصبره على تحليل النصوص وإنصافه من سبقه.

ويتوقف البنا عند "العتبات"، موضحاً أن عنوان الكتاب يكسر توقع القارئ ويربط الفيزياء بالنقد، والمنهج البيني قائم على مفهوم المثاقفة، وأن أبيات ابن الرومي والمتنبي التي استُهل بها الكتاب تحمل إشارات فلسفية يونانية تؤكد تسرّب الفلسفة إلى الشعر العباسي، وكذلك الحال مع مقولة "إرنست بلوخ" ومفادها "التطور هو إخراج الصورة من المادة"، والتي وجد لها نظيراً عند "أوليفر وندل هولمز" عام 1859م، خالصاً إلى أن الدرس العربي لا بد أن يعيد قراءة الجرجاني ويعيد صلته بأرسطو.

تضمن الكتاب مقدمة يعلن فيها الزعبي عن هدفه بوضوح: "الكشف عن المصادر الفلسفية التي مكّنت الجاحظ وقدامة ابن جعفر وعبد القاهر الجرجاني من بناء رؤى نقدية محورية تعتمد في أصولها على النظريات الفلسفية"، ليحدد بعدها محور البحث القائم على "ثنائية اللفظ والمعنى، بوصفها تمثّل تجلياً نقدياً لثنائيةٍ أعمق تعود إلى الفكر الفلسفي الأرسطي".

ويرى الزعبي أن قدامة "اعتمد اعتماداً واضحاً" على النظرية الأرسطية في المادة والصورة، وأن الجرجاني استثمرها ضمن منظومة أوسع، "غير أنه لم يكتفِ بالنقل أو التلقي، بل مارس فعلا نقدياً تحويلياً" نقل به المفاهيم من الفلسفة إلى النقد الأدبي، وهو تحوُّل جعل كثيراً من الدراسات الحديثة تقرأ الجرجاني "بمعزل عن الأصول الفلسفية" على الرغم من عبارة طه حسين الشهيرة بأنه "فيلسوف يُحْسن شرح أرسطو والتعليق عليه".

وفيما يخص المنهج، يوضح الزعبي أنه اعتمد على الدراسات البينية التي "تربط وتدمج بين حقلين علميين أو أكثر"، والتزم فيه "منهجاً توثيقياً يقوم على قراءة النصوص الفلسفية في أصولها، وربطها بالنصوص النقدية العربية، دون اللجوء إلى التأويل، أو الإنشاء، أو الإسقاط"، وغايته في ذلك تتبع "مسار تحويل نظرية أرسطو في الطبيعة إلى نظرية فنية جمالية، تكشف عن آلية التثاقف الخلاق الذي حوّل الفيزياء إلى جماليات".

ويصف المؤلف عمله بأنه "دعوة لإعادة قراءة النظرية النقدية عند العرب قراءة جديدة تنأى عن النمطية"، وتحاور الفكر النقدي "دون إذعان للكتب المرجعية المعتمَدة، أو للتصورات المكرَّسة عبر زمن ممتد"، ولا يستثني الزعبي كتابه من المساءلة، إذ يقول إن الكتب المرجعية "لا تقع في حيز العصمة، لأنها جهد إنساني يجب أن يخضع للمساءلة، ومنها هذا الكتاب"، مضيفاً أن أهميته بحثه "لا تكمن في نتائجه فحسب، بل في المسار المنهجي الذي يقترحه".

وفي التمهيد للكتاب الواقع في 160 صفحة، يروي الزعبي بداية رحلته مع السؤال، حين استوقفه في أثناء تدريسه في الجامعة نص للتوحيدي يفرّق بين الشعر والنثر بوصف الأول من حيز "التركيب" والثاني من حيز "البساطة"، ثم يعرض الجدلَ بين من أثبتوا الأثر اليوناني، وفي مقدمتهم طه حسين، ومَن نفوه. ويشير إلى أن أغلب الدراسات انشغلت بكتابَي "فن الشعر" و"الخطابة"، وتجاهلت كتاب "الفيزياء". ويتتبع الزعبي ترجمة الكتاب وشروحه منذ القرن الثالث للهجرة، بدءاً بسلام الأبرش والكندي وحنين بن إسحاق، وصولاً إلى الفارابي وإخوان الصفا والتوحيدي وابن سينا الذي ظهرت موسوعته

"الشفاء" في مطلع القرن الخامس للهجرة.

أَسَّسَ الفصل الأول الذي حمل عنوان "في المثاقفة"، الإطارَ النظري للكتاب، وفيه وقف المؤلف عند مصطلح "المثاقفة" ومفهومه، ثم المثاقفة العربية اليونانية ودور الترجمة في تشكيل النظرية النقدية، وقرأ الجاحظ في سياقه الثقافي متعدد المرجعيات، وقرأ مقولته الشهيرة عن "المعاني الملقاة على قارعة الطريق" قراءةً "مفارِقة" في ضوء ثنائية المادة والصورة، ثم عالج حضور هذه الثنائية في فكر الجاحظ عامة. واستعان المؤلف في هذا الفصل بأمثلة من الثقافة الأوروبية، ومنها "الديوان الشرقي للمؤلف الغربي" للفيلسوف "جوته" المتأثر بحافظ الشيرازي، وبكتاب "ديمتري غوتاس" عن الفكر اليوناني والثقافة العربية، ليبين أن الأخذ عن الآخر فعلُ إنتاج لا إذعان.

وخصص الزعبي الفصل الثاني من الكتاب والذي جاء بعنوان "خشب قدامة وسريره" لكتاب "نقد الشعر"، موضحاً كيف نقلَ قدامة المثال الأرسطي بحرفيته: الخشب مادة والسرير صورة، ليبني عليه تصوره للشعر على أنه صناعة مادتها المعاني وصورتها الصياغة، ثم تتبع "تحولات نظرية أرسطو في الفيزياء" عند قدامة وصلته المباشرة بـ"السماع الطبيعي"، ثم عرض أطروحته القائلة إن "الشعر صناعة والصانع حر"، وما ترتب عليها من تركيزٍ على جودة الصنعة وحدها.

أما الفصل الثالث والأخير "الجرجاني فيلسوف يشرح أرسطو"، وهو أطول فصول الكتاب، فمهد له المؤلف بعرض قراءات سابقة على الجرجاني، منها ما كتبه التوحيدي عن الفلسفة وفعل التثاقف، ثم دخل إلى "أسرار الصورة وأسرار البلاغة"، وناقش القراءات المعاصرة لنظرية الجرجاني، ليتتبع بعدها عدة محاور في مشروع الجرجاني ومنها: "الشعر صناعة"، و"لا حكم على الصانع"، و"وحدة المعنى وتعدد الصور"، و"فتنة الصورة المحاكية وروعها"، و"النظم صورة صناعية"، و"التأليف بين المتنافرات". ورصد الزعبي في هذا الفصل حضور أفكار فلسفية موضعية عند ابن طباطبا والآمدي وابن سنان الخفاجي، وأشار إلى التقاطع بين تصورات القاضي عبد الجبار في "المغني" ونظرية النظم في "دلائل الإعجاز"، ثم قارن نصوص الجرجاني بنصوص ابن سينا والفارابي وإخوان الصفا، موضحاً أن الجرجاني حوّل ما تلقّاه إلى نظرية جديدة في النظم خدمةً لبيان الإعجاز.

يُذكر أن د.زياد الزعبي عمل أستاذاً جامعياً منذ عام 1987 وحتى تقاعده مؤخراً، نال الدكتوراة في الفلسفة (النقد العربي) من ألمانيا عام 1987، من مؤلفاته "المتلقي المذعن"، و"في حب الحب"، و"المثاقفة وتوليد المصطلح"، إضافة إلى تحقيق ديوان عرار "عشيات وادي اليابس".